

الآداب في سبر أعينهم :

ملتن...

[الفيتارة الخالدة التي غنت أروع
أناشيد الجلال والحرة والخيال ...]

الاستاذ محمود الخفيف

- ٢٠ -

الزواج والعصرم الأولى :

وفي فبراير سنة ١٦٤٤ أعاد ملتن طبع الكتيب ورتبه .
 فقد عاب الناس طبعته الأولى ، وقدم ملتن لطبعته الثانية بمقدمة
 قرع فيها إلى البرلمان أن يؤيد آراءه فيصدر بها قانوناً مدنياً
 للطلاق ، وإلى مجمع البرستيز أن ينظر فيما يقول نظرة العطف
 فيسدى إلى المسيحية صنيعاً يبق على الدهر ... ولا يفوته إذ يلجأ

فيه كالزنا والسرقة وشرب الخمر والقذف ؛ ونوع فيه كفارة
 ولا حد فيه كالقربان في الإحرام وفي نهار رمضان ؛ ونوع لا
 كفارة فيه ولا حد كالنظر إلى الأجنبية واليمين الغموس عند
 الإمامين أبي حنيفة وأحمد .

فالنوع الأول لا تنزير فيه لوجوب الحد ، وفي الثاني قولان
 للفقهاء — أما الثالث ففيه التنزير وجوباً عند الأكثرين ، وجوازاً
 عند الشافعي .

والتميز يختلف باختلاف الجرائم ، وبحسب حال المذنب
 نفسه ، ولذلك قد يكون بالتوبيخ والجزر بالكلام ، ومنه ما يكون
 بالجلس أو بالضرب أو بالنفي عن الوطن ، وقد يكون بالقتل .
 وللفقهاء أقوال أربعة في صفة التنزير وقدره ، وقد بسطنا القول
 في ذلك في الممدد ٦٤٨ من الرسالة . ومن هذه الأقوال أن
 التنزير موكول إلى اجتهد ولي الأمر يقدره وفق المصلحة وعلى
 حسب الجريمة .

إلى البرلمان أن يشير إلى رسالة إنجلترا في هذا العالم ، فلئن اعتنقت
 إنجلترا ما يذهب إليه من رأى ذاع هذا الرأى حتى يملأ الدنيا ،
 ويهيب بالنواب قائلاً بعد أن يسرد الأمثلة على سبق إنجلترا في
 العلم والدين « لا تدعوا إنجلترا تنسى سوابقها في تعليم الأمم
 كيف تعيش » ، ولا يفوته كذلك أن يلجأ إلى الاستيرنيز أن
 يمتدح ما اجتمع في مجلدتهم من تقوى وعلم وحصافة .

كانت الفكرة الأساسية في كتيبه « قانون الطلاق ونظامه »
 هي أن الزواج والحب يجب أن يكون أساسهما التوافق والانجام
 العقلي والروحي بين المرأة والرجل ؛ فإذا لم يتحقق هذا التوافق
 في الشعور والفكر بطل الزواج ، وكان الطلاق من حق الرجل
 متى طلبه .

وللدفاع عن هذه الفكرة الموجزة بسط ملتن القول فنظر
 في الزواج قديماً وحديثاً ، واستعرض آراء الأقدمين ، وآراء
 آباء الكنيسة الأولين ، وراجع ما جاء في الإنجيل ليأتى بما
 يؤيد رأيه ، ثم عمد إلى المنطق بعد الدليل العقلي فدافع عن رأيه
 في قوة وإيمان ، وأتى بطلاقة من الآراء استقر بعضها في نفسه

وبعد فإذا ترى فيما سقته لك من النصوص والمذاهب والآراء
 الفقهية في العقوبات التي تدخل في باب التنزير ، وفي غير العقوبات
 من الأحكام الاجتهادية الأخرى ؟

ولا ريب أن كل منصف يحكم بكال الشريعة وسننها ، وأنه
 لا عذر لمن يترك شريعة الإسلام إلى غيرها من القوانين .

وبطلت بذلك دعوى الجاهلين أو الخواصين وهي أن الشريعة
 لا تستطيع أن تعد الحاكمين في العصر الحاضر — وبخاصة في القانون
 الجنائي — بالأحكام الصالحة ، فإن للمشرعين المحدثين مجالاً أياً
 مجال في الرجوع إلى آراء أئمة الإسلام واختيار الصالح لنا منها ،
 أو في استنباط أحكام جديدة فيما يدخل في باب التنزير على أن نحافظ
 على أصول شريعتنا ونراعى مقاصدها وننزل على الحكم من نصوصها ،
 وبذلك تستطيع الأنظار الإسلامية أن تضع قانونها الجنائي أو أي
 قانون آخر على أساس من الشرع قويم .

من أحمد الخطيب

(للبحث بقية)

حتى ظهر كجانب من فلسفته في قصيدته التكبرى فيما بعد .
اشتدت ثورة ملتن على الجسد وفتنته وما في سيطرته من شر
وضلال ؛ ولكنه أكد أن قهره في استطاعة أولى العزم من
العقلاء الذين يغلبون الحكمة على العاطفة ، وما يسلم ملتن بغلبة
الجسد أبداً وتسلطه على العقل والحكمة وهو الذى تسلط جمده
مرة في فورة من فوراته على حكمته الوثيقة وعزمه الطويل ،
وإنما يعبر بهذا الإنكار عن ثورته الكامنة في نفسه على الجسد
وقد بقى هذا المعنى في حسد حتى كان حديث غواية آدم في
« الفردوس المفقود » وما كان لحر المرأة من أثر في هذه الغواية .
وساق ملتن هذا المعنى إلى معنى آخر ، وذلك أن الشر هو
أن تنقلب العاطفة على العقل وأن يُضلَّ الوجدان البصيرة ،
أما العاطفة في ذاتها والوجدان في ذاته فلا ضير منهما ، ولا يحق
اعتراض سبيلهما إلا أن يطنيا على الحكمة ؛ فان لم يفعلا فليتخذا
جراهما ملّيقين ... ، وما كانت قصة هبوط آدم من الجنة إلا قصة
تسلط العاطفة على العقل .

ويطبق ملتن ذلك على الزواج فيقول إنه إذا لم يتم التوافق
الماتق بين الزوجين ، فإن الاتصال الجسدى ضرب من انحطاط
البهيمية حتى مع الزواج ؛ وعلى ذلك فإن الاحساس بفقدان الميل
بين الزوجين أوالقصور العقلى من أحدهما تلقاء الآخر ، أو بتنافر
العقلين ، تلك الملل التى يكون مردها إلى أسباب في طبيعة
النفس لا يمكن تغييرها ، إنما هي مبررات للطلاق أوجه من
الوجود وأحق ، فالطلاق أمر يرد من حيث مشروعيته إلى ضمير
الإنسان ، ولا وجه عنده لأن يخضع الإنسان لعبودية قانون
الكنيسة الذى يجعل الإثم المادى أعظم من الإثم العقلى والروحى
وأشد خطراً ...

ولا يسع من يقرأ هذا الكتيب إلا العطف على الشاعر إذ
يمر عن مقدار ما يحيق بالنفس من عذاب إذا منى المرء بالفشل
في زواجه ولم يتح له ما يتطلع إليه من وراء الزواج من « حديث
طيب ملؤه السرور بين الرجل والمرأة يريحه وينمش نفسه بعد
ما ذاقه من مساوى العزلة » وما أشد ألمه وأقسى خيبته « إذا
كان نصيبه زوجة خرساء لا روح لها فانه يظل أكثر عزلة من

ذى قبل ، ويبقى في تحرق وشوق أشد على طاقة المرء من التحرق
الجسدى وأدعى منه إلى التفكير فيه والاهتمام به » ، ويصف
الشاعر هذا التحرق وصفاً شعرياً بقوله « أن الماء النزر لن يطفئه
لا ولا الفيض يفرقه » ، وفي التطلع إلى مثل تلك السعادة الزوجية
وإلى مثل ذلك الحب الصحيح « يقضى المرء أيام شبابه وليس
فيها ما يلام عليه » ، ويجهل بذلك كثيراً مما كان خليقاً أن
يرشده متى شاء أن يختار زوجة فيدع هذه ويأخذ تلك عن بينة
كما يفعل عند الزواج من قضا صدر شبابهم فيما لا يخلو من اللوم
ثم إذا به يجد نفسه « مقيداً قيداً وثيقاً إلى من لا تجاوب بينها
وبينه ولا تواؤم بين طبعها وطبعه ، أو كما يحدث غالباً إلى صورة
من الطين تطلع من قبل ليكون شريكها في اجتماع حلوه ملؤه
الفرح ، ويجد في النهاية أن قيده لا انتفاع منه ؛ ومثل هذا حتى
لو كان أقوى مسيحى فانه لا مناص على أهبة أن ييأس من الفضيلة
ويقطع من رحمة الله ، وهذا بلا ريب سبب ذلك الفشل ، وذلك
اليأس الحزين الذى نراه في طائفة كثيرة ممن يتزوجون » ،
ويصور ملتن بخيال الشاعر مقدار ما يكون بين زوجين في مثل
تلك الحالة من خلاف بقوله : « حين تتنافر أفكارهما وروحاهما
وتتباعدان كلاهما عن الآخر كبعد ما بين الجنة والجحيم » .
ويتساءل ملتن كيف يتسنى الاختلاط الجسدى الوثيق بين
زوجين يكره أحدهما الآخر كرهاً شديداً فعلا ، ويود لو يمتزله
اعتزالاً ثم هو يعيش معه أبداً ؟ « ؛ ويژه ملتن الله عن أن يكون
ذلك قصده من الزواج فيقول : « هل فتح الله لنا ذلك الباب الذى
يكون منه الخطر والمباغاة ، باب الزواج ليفلحه من دوننا كما يفلح
باب الموت فلا تراجع ولا أوبة ؟ » ، ويعود إلى تصوير ما يؤول
إليه مثل ذلك الزواج الفاشل فيقول « لا بد أن يقضى ما لم تقع
معجزة من معجزات الصبر في كلا الجانبين ، لا إلى ألم مرير ،
وحق شديد غسب ، وهما مما يوبق الأدعان لله ، بل إلى استهتار
يأس فاجر ، إذ يجد المرء نفسه في غير ذنب من جانبه قد جرت
نوبة من الخداع إلى فخ من فخاق الشقاء » .

وماذا عسى أن يصنع من متى يمثل هذا الجد المائر ؟ ...
أيتسلل إلى سرير جاره كما يتبع عادة في مثل هذه الخيبة ؟ أم

سلطة الأمراء أنفسهم من وراء قضائهم في هذه الأمور وإبرامها «
وينتهي ملتن إلى قاعدة سوف تنمو في ذهنه ويتسع مداها في
فكره ومؤداها أن لا قانون يتقيد به الرجل الحكيم .

ويبين ملتن مبلغ ما يسديه الشرعون من خير إلى الإنسانية
إذا أخذوا بأرائه في الطلاق . فيقول : « إنهم بذلك يرفعون
كثيرين ممن لاحول لهم من المسيحيين من أعماق الأسى والحزن
حيث لا قبل لهم قط بأداء أية خدمة لله ولا لأحد من عباده ،
ويخلصون كثيرين من نفوذ الطوائف المظلمة المضطربة ، وينقذون
كثيرين من الإباحية الهيمية الجائعة وكثيرين من الشقاء المورس
ويعيدون الإنسان إلى كرامته الصحيحة وإلى حقه الطبيعي ؛
ويعودون بالزواج من وضعه الحالي كفتح من الفخاخ ومسالمة
من مسائل الخطأ يأتي منها الخطر إلى حالته الرجوة إذ يكون الرفق
الأمين والملمح الاجتماعي السعيد .

وفي يوليو سنة ١٦٤٤ نشر ملتن مقالا مطولا جعل عنوانه
« رأى مارتن بوسر في الطلاق » ؛ ورد بهذا المقال على غالي
آرائه التي تضمنها كتيبه « قانون الطلاق ونظامه » ؛ وقد أخذ
هذا الكتيب بشير عليه سخط البرسبتيريز حتى أنهم شددوا عليه
النكير في كتاباتهم ، ووضع مجمع وستنسر إيم كتيبه في قائمة
الكتب التي لا يصح أن تقرأ واعتبر مؤلفه من الخوارج
أو « المستقلين » ؛ وطلبوا إلى نقابة الطايعين أن ينظروا في أمره
ليلقى جزاء طبعه كتيبه بنير تصريح مخالف بذلك قانون الطبع ؛
ولكن التجاهل إلى قانون الطبع ورغبتهم في مصادرة كتيبه
لم يجدهم شيئا فقد أوشكت أن تقع مقاليد السلطة في إنجلترا
في يد كرمويل وأحس الناس أن فجر الحرية يوشك أن ينهل على
البلاد نوره .

وستتبع مسافة الخلف بينه وبين البرسبتيريز فيكون هذا
الخلف هو الصدمة الثانية لنفسه بعد الصدمة الأولى وهي فشله
في زواجه ؛ ويرى بعض المؤرخين أن غضب البرسبتيريز عليه ،
ونعمهم إياه بنموت سوف تذكرها في حينها كان آلم وقمأ في
نفسه من هجران زوجته إياه ...

الأنبياء

(ينبع)

يدع حياته النافعة تذهب هباء فيما لا يجدى ؟ . كلا ؛ إن الأقرب
إلى الرجولة أن يقضى على شقائه بالطلاق ، فانه إن بقي على ما هو
عليه ولم يستطع أن يحسب جلب على نفسه جديداً من الضر ،
ولذلك فإن من يعمل على فهم تلك العروة إنما هو ذلك الذي يعمل
قدر الحياة الزوجية ولا يقبل أن يشينها .

ويرى من يقرأ كتيبه هذا أن الناحية العاطفية أقوى فيه
من ناحية المنطق ، ومرد ذلك إلى أن الشاعر إنما يصف ما عانى
من ألم نتيجة لما رزى به من خيبة ، فهو يتحدث حديث الخبير ،
كما أن حديثه هو إلى الشكوى أقرب منه إلى الدرس وفي ذلك
سحره وقوته .

ولئن أبت عليه كبرياؤه أن يشير إلى ذلك ، فإن من يقرأ
عباراته وليس يعلم قضية زواجه خليف أن يحس تلقاء ما ترخر به
من حياة وحرارة أنها متنفس نفس متألدة ، وشكاة قلب معذب .
وكذلك ينم عنه في كتيبه هذا نلمسه اللال لمثل ما وقع فيه من
خطأ ، فكل امرئ عرضة لأن تجدعه المظاهر فتجره إلى
ما لا يحب « وإن أكثر الناس عقلا وأقواماً تحسناً من أزمة
نفسهم هم أقل الناس تجربة في مثل هذه الأمور وأجدرهم
ألا يعرفوا أن ما تقع عليه أعينهم في عذراء من صمت خجول إنما
يخفى وراءه ذلك الجود وذلك الكسل الطبيعي الذي لا يصلح
قط لحوار » . وتكاد تلخص هذه العبارة قصة زواج ملتن بتاري
بول فانه كما ذكرنا لم يك يعرفها من قبل ورأى في صمتها وقد
مال إليها عذراء نحسب ...

ومما يتصل به ملتن من طرف خفي إشارته إلى عقيدة القدر
المحتم فهو يؤمن بها اليوم وإن أنكرها غداً ؛ فلن يفر المرء مما
قدر عليه وينطبق ذلك الزواج بالضرورة كما ينطبق على غيره .

ويجد ملتن في هذه القضية فرصة لتجديد طمنه على المساواة
فيقول إن ما يدعيه البابا ورجال الدين من اختصاص في أمور
الزواج إنما يقوم على الاغتصاب ، فإن الزواج والطلاق من
اختصاص رب الأسرة كما قضى بذلك الله ، وكما تقضى طبيعة
الأشياء وكما ارتضى المسيح ، ولكن بابوات روما اغتصبوا ذلك
الاختصاص « وقد رأوا ما يصيبون من مقام ومن سلطة تفوق